قنديل إشبيلية

عنوان مجموعة قصصية للكاتب عبد السلام العجيلي الصادرة عن دار الشرق بيروت والتي تحتوي مجموعة قصص:

قناديل اشبيلية
الليل في كل مكان
الشباك
بنادق في لواء الجليل
بريد معاد
الرؤيا
سالي

على غلاف الكتاب:

ينطوي هذا الكتاب على سبع أقاصيص كتبها الدكتور عبد السلام العجيلي، والعجيلي قصصي أصيل قلت فيه منذ سنوات أنه يجري ولا يُجرى معه..
زار فيها العواصم الأوربية.. عفواً، الرجل تلميذ مدرستين: مدرسة البادية التي نشأ فيها، ومدرسة الحضارة التي لنا فيتفرد بين قصاصينا بهذا اللون.. كان ينقصنا قصاصو معارك وإذا نسينا المعارك القومية التي يصورها أقصوصة (بريد معاد) ولو كانت بالعجيلي يملأ هذا الفراغ كما يجب أن يملأ، وها هو يحرك كوامن النفوس في القصة القصيرة نار متقدة النفس من جليد تشب فيها الحرارة، فكل هذه...
نموذج نادر على الدكتور العجيلي إذ رآه أما قصة قناديل اشبيلية وهي أم الكتاب فبطلها البروفيسور آلسيدو، وهو نوع خاص، يظن نفسه من سادة العرب وأنه سيستعيد اشبيلية مملكة في اشبيلية. مسكين مصاب بجنون من اشبيلية كما نقلني العجيلي، ماعليك إلا أن تقرأ (قناديل اشبيلية) فإنها تغني عن العيان وقد تنقلك إلى ..أجداده قرأتها أنا والشرط أن تقرأها وأنت في فراشك ليلاً كما..
مارون عبود

قـنـاديـل اشـبـيـلـيـة



إلى جوليين بيترز المقيمة في فوريه ببروكسل، والتي بكت متأثرة بجمال الفن العربي في (الكازار) اشبيلية، "أهدي هذه القناديل"
ع.

قال البروفيسور آلسيدو – بهذا قدمته إليّ الراقصة الساحرة العينين- وهو يفرغ الكأس الأولى في جوفه:
-هل تحتقر ابن عمك إذا كلمك بغير لغته؟ لقد سمعتك تتكلم الفرنسية بطلاقة، فاسمح لي أن أحادثك بها,
فأومأت برأسي موافقاً، وموطناً النفس على سماع حديث هذا الطفيلي إلى نهايته.. قال:

-رأيتك امتعضت من دعابة هياسنتا. إنها دعابة تجرح، ولكنك لست المقصود بها يا ابن العم. كانت سهماً مسدداً إليّ لولا أن جلدي أصبح في غلظ جلد التمساح. ومع ذلك فإن لهياسنتا عينين تشفعان لها في كل ذنب تأتيه.
قلت: أهذا هو اسمها؟
قال: نعم، هياسنتا. إنه اسم جميل، وهي كذلك جميلة. ألا توافقني؟
فدرت برأسي إلى الراقصة التي كانت قد تحولت إلى مائدة بجواري تعابث من كان حولها من رواد ملهى الكاسينو بمثل ما كانت تعابثني به. وكانت حقاً جميلة بقوامها المشيق، وذراعيها العبلتين، وبوجهها الذي تنيره عينان واسعتان حوراوان وشعرها الأسود الذي زينته بوردة الارجوان. وكانت قبل قليل قد وقفت على مائدتي تسألني، وقد رأت أني لا أحسن الاسبانية:
-هل السيد برتغالي؟
فنفيت لها بحركة من رأسي.
-إذن إيطالي؟
فضحكت وأنا أعلم أن سمرة وجهي تدعوها إلى هذه الظنون، وأومأت لها كذلك نفياً برأسي .
-من أين السيد إذن؟
-عربي.
-عربي؟ من مراكش؟
-بل من بعيد، عربي من المشرق.
فالتفتت إلى مائدة قريبة كانت شبه مختفية وراء احدى شجيرات الورد في حديقة الملهى، وصاحت:
-آلسيدو! هذا السيد عربي جاء مثلك يبحث عن ملك أجداده...
وكانت هذه هي الدعابة التي امتعضت منها والتي جاءت بالبروفيسور آلسيدو إلى مائدتي. وكان آلسيدو شائباً نحيف القامة غارت عيناه في وقبيهما ولكنهما ظلتا تلمعان كعيني طير جارح. وكانت أصابعه المعروقة طويلة تنم عن ميول أصيلة إلى الفن وحياة الترف، وإن كانت ملابسه المهندمة على بلاها تدل على ارستقراطية زائفة.
وكانت نظرة واحدة مني إلى محياه وهندامه كافية لأن أتعرف على طفيلي من أولئك الذين يتحلون بصفات نادرة من المرح او الاطلاع أو من الذكاء اللامع تقربهم من القلوب. لقد رأيت من هذا الصنف نماذج عديدة في البلاد التي حللتها، وهذا نموذج جديد، أفرغ بقية كأسه في جرعة واحدة ورفع رأسه إليّ يسألني:
-منذ متى حللت اشبيلية؟
-هذا المساء.
-بديع. أحسنت إذ بدأت زيارتك برؤية أجمل حسان اشبيلية في الكاسينو. ليست هياسنتا الا واحدة منهن. أرجو أن تجد لك بينهن دليلة تزور معك الألكازار، وتورو دِلْ أورو، وتسير بك على ضفة الوادي الكبير تحت ضياء القمر. انظر إلى القمر هناك، إنه بدر في هذه الليلة.
ورفعت رأسي إلى القمر الذي كان بدراً كاملاً يعرج صعداً في قبة السماء، بينما استمر آلسيدو يقول وكأنه يهمس لنفسه:
-ما أجمل أن تسير على ضفة "الوادي الكبير" تحت ضياء القمر!
-قلت: أيذكرك البدر بما مضى؟
فضحك وهو يقول: نعم. حقا انه يذكرني بما مضى، حينما كنت أبحث عن ملك أجدادي.
فعادت إلى خاطري دعابة هياسنتا وقلت له:
-أكان لأجدادك ملك في هذه المدينة؟
فصاح كالمحتج:
-ملك؟ انهم كانوا أسيادها. قد تضحك مني هياسنتا وتتهكم علي رفيقاتها ولكننا كنا سادة اشبيلية في ذات يوم.
-كنتم؟ من أنتم؟
-أنا وأنت يا سيدي، نحن العرب.
-هل أنت عربي يا بروفيسور آلسيدو؟
-أولم تدرك ذلك حتى الان يا ابن العم؟ آه ما أغباني حين لم أخبرك بذلك من أول الأمر. انهم يسمونني هنا آلسيدو، أما أنت فلك أن تدعوني السيد، السيد بوقلادة. إنه ليس اسمي الصحيح على كل حال، ولكنه قريب منه. لعلك ستذهب ذات يوم إلى مكناس وتبحث عن آل.. عن آل بوقلادة لتروي لهم انك رأيت فتاهم يكرع كؤوس الخمر على موائد الكاسينو في اشبيلية..
فتطلعت إلى آلسيدو من جديد، أتفحص وجهه وهيئته. يجوز أن يكون هذا الشائب عربي الأصل فما أكثر الملامح العربية في الأندلس. وكأنه كان يقرأ أفكاري إذ لم يلبث أن نطق لدهشتي باللغة العربية في لهجة مغربية قائلاً:
-هل كنت تظنني اسبانياً؟ معك حق. من الذي ينتظر أن يرى عربيا في كاسينو اشبيلية! أنا نفسي ما كنت أتصور هذا .
وعاد إلى الحديث بالفرنسية وهو يقول:

-ان الخادم مقبل علينا. هل أستطيع أن أشرب كأساً ثانية على حسابك؟
فصفقت بيدي إلى الساقي، بينما رفع آلسيدو رأسه إلى السماء وقال:
-ما أبدع أن تسير على ضفة "غوادالكيفير" تحت ضياء القمر! ثم سكت. أما أنا فانصرفت إلى تأمل راقصة ظهرت على الحلبة في ثوب أندلسي فضفاض أزرق بلون البحر. وكانت ترافق بنقرات الصناجات في أصابع كفيها وبدقات كعبيها على أرض الحلبة رنين أوتار القيثارات، وكلما دارت على نفسها تكومت حواشي ثوبها في لحظة ثم انفرجت عن ساقيها المشيقتين في لحظة أخرى كأنها أمواج مزبدة تتدافع حول ساقي سابحة عارية. ولم ألتفت إلى جليسي إلا حين صمتت الموسيقى وأضيئت الأنوار في حديقة الملهى من جديد. فقد خرج هو من صمته فجأة بقوله:
-ألا تريد أن أقص عليك قصتي؟
قلت وعلى شفتي ابتسامة هازئة:
-قصة ملك أجدادك؟
فخيل إلي أن عينيه غامتا وأن شيئاً من الكمد قد طغى على ألق نظرته. وحسبت أني جرحته بلهجتي الساخرة حتى لوددت أن أعتذر إليه. ومرت برهة بدا لي فيها أنه لن يعود بعدها إلى الحديث، ولكن يظهر أن شهوة الكلام عنده كانت أقوى من ارادته فلم يلبث أن سألني في هدوء:
-هل سمعت شيئاً عن مفاتيح العودة؟
قلت: أي شيء هي هذه المفاتيح؟
قال: مفاتيح العودة! يقول الناس عنها أنها أسطورة، ولكني أعرف في كناس وحدها عشر دور معلقة عند مداخلها مفاتيح العودة. منذ خمسة قرون ترك أجدادنا، أجدادي وأجدادك يا ابن العم، هذه البلاد مكرهين إلى شواطئ افريقية. لم يستطيعوا في فوضى الهزيمة وفي ذل الانكسار أن ينقلوا معهم الأرض التي رووها بدمائهم ولا القصور التي بنتها أيديهم ولا كنوز الفن التي أبدعوها في فردوس الأندلس، فتركوا كل ذلك وراءهم ناجين بأنفسهم. إلا أن بعضهم حمل معه إلى العدوة الثانية مفاتيح قصوره تذكاراً للفردوس المضاع وحافزاً إلى العودة. فلو قدر لك أن تدخل الدور العتيقة في دروب مكناس وفاس ومليلة حتى القيروان فقد تجد في احداها عند المدخل مفتاحاً صدئاً نسي أهله الحاضرون دلالته فحسبوه من سقط المتاع. فإن كنت تعرف قدر أجدادنا يا ابن العم وقدر ما دانوا الدنيا به فإنه يجدر بك أن تلثم بخشوع تلك القطعة المعدنية الصدئة، تلثمها ثم تمس بها جبينك، ذلك لأنها مفتاح من مفاتيح العودة.
وسكت هنا البروفيسور آلسيدو بعد أن لفظ جملته الأخيرة في حماسة مثيرة. لقد بدأت أتطلع إليه بعين غير العين التي كنت أراه بها يفرغ كؤوس الخمرة الأندلسية في جوفه. ما أغرب أن أجد في كاسينو اشبيلية من يذكرني بماضي العرب في أسبانيا! حسبت أن أسود قصر الحمراء المتحجرة منذ ثمانية قرون حول بركتاه في غرناطة تذكر وحدها هذا الماضي. كل ما يعيد ذكرى العرب إلى الخاطر في الأندلس كان أثراً ميتاً أو متحجراً، ولكن هذا أثر حي يحدثني عنهم تحت أنظار راقصات اشبيلية الفواتن. واعتدلت في جلستي لأستمع إلى حديث البروفيسور آلسيدو، أو السيد بوقلادة، عن مفاتيح العودة وعن ملك أجداده .وفي انتظار ذلك صفقت من جديد أدعو خادم الملهى، بينما انطلق هو في حديثه.
-لقد كان أحد هذه المفاتيح، مفاتيح العودة، في دار آل بوقلادة في مكناس .لم يكن معلقاً عند المدخل بل كان يحتل صدر القاعة المثمنة التي تلي المدخل والتي كان يحمل سقفها عمد مزدوجة في كل زاوية من زاوياها. وكانت نوافذ القاعة الثماني المنفتحة على بستان الدار تجمع النور لتلقيه على المفتاح فيبدو كأنه مسيح مصلوب على مذبح كاتدرائية. كم مرة وقفت وأنا صبي أتأمل في المفتاح الذي توارثه أسلافي واحداً عن واحد، وخاطري يطوف في أخيلة عوالم بعيدة، هي العوالم التي جاء منها المفتاح والتي يرمز المفتاح إلى العودة إليها. كل صبيان آل بوقلادة طيلة خمسة قرون متتالية وقفوا موقفي، وكلني ما أحسب واحداً منهم أهمه هذا الرمز مثلما أهمني. كنت أتساءل أين من بلاد الأندلس تقع تلك الدار التي هذا مفتاحها، في السهل أم في الجبل، في الساحل أم في الثغور؟ أهي حصن فارس مغوار أم قصر سيد مترف أم صومعة ناسك زاهد؟ وأسأل نفسي متى تكون هذه العودة وكيف ستكون وهل في ذات يوم ستكون؟.. آه من أحلام الصبا، آه من الأحلام كلها يا ابن العم!
وزفر آلسيدو في حرقة قبل أن يقلب الكأس على شفتيه ثم يستمر .
-ثم شببت وودعت الصبا.. وفي ذات يوم عبرت المضيق إلى إسبانيا. لأقل عدت إلى اسبانيا. لم تكن هذه هي العودة التي ملأت أحلامي، ولكني كنت مشوقاً إلى أن أرى بعيني الأرض التي كانت ففي خيالي قارة مفقودة. قد تكون يا ابن العم من بغداد أو من دمشق أو من صنعاء اليمن، من أي بلد كنت فلا بد أن تكون قد عبرت بك لحظة هنا شعرت فيها أن لك في ثرى هذه البلاد حصة وأن رباطاً وثيقاً يصلك بها. أما أنا فقد كنت أشعر أني أعثر على أجزاء مفقودة من نفسي في قادس، في بلنسية، في جبل البيازين بغرناطة وفي "الرونا الأندالوسيّا" في سهل الجزيرة. كان يدور بنفسي أني إذا سلكت أحد الدروب الضيقة في أي حي من أحياء مدن الأندلس القديمة فسأنتهي حتما إلى باب صدئ مغلق لو أدرت في قفله العتيق مفتاح العودة المعلق في القاعة المثمنة من دارنا بمكناس لانفتح كأنه أغلق به منذ لحظات . حتى انتهيت إلى اشبيلية..

بلغت اشبيلية في ذات مساء مثل هذا المساء منهك الجسم من قيظ الأندلس المحرق ومن تعب الرحلة في قطار الكوريبوس البطيء. لعلك ذقت اليوم هذا القيظ وهذا التعب إذا كنت قدمت بالقطار من غرناطة أو من قرطبة. فكما أن قيظ الأندلس لم يتغير منذ ثلاثين عاماً إلى اليوم فإن قطار الكوريبوس لم يتغير منذ ذلك اليوم إلى اليوم. وكان الشارع الذي يقع فندقي فيه مزدحماً تنبعث من أرضه التي رشت بالماء ابتغاءً للرطوبة أبخرة حارة تخمد الأنفاس، وتثير أقدام المارة فيه ذرات لزجة من الغبار يخيل إليك ، لركود الهواء ، أنها ساكنة في مواقفها من الجو تزحم المارة مثلما يزحم بعضها بعضا. فلم ألبث في الفندق إلا ريثما انتضحت بدوش ماء بارد ثم انطلقت أتجول في المدينة.

لم تكن لي غاية في تجوالي، ولو كانت لي لما عرفتها في بلد أهبطه لأول مرة وفي غبش المساء. وقادتني قدماي إلى شارع قل فيه السابلة وهبت فيه نسمة راطبة كأنها مرت على صفحة نهر قريب. ولاح لي عند أحد المنعطفات بائع صبّار ينادي على بضاعته بصوت خفيض، ثم رأيت على الرصيف المقابل منظراً لم أتبين جيداً في الظلمة التي أخذت تتسلل إلى الشوارع الضيقة، فعبرت إليه الشارع لأتبينه عن كثب. وكان منظراً لبوابة يمتد منها مدخل مفروش جداراه الجانبيان وسقفه ببلاط لامع مزخرف كالقيشاني، وفي نهاية المدخل باب مشبّك من الحديد المضفور تتبين من خلال تشبيكه قاعة مدوّرة، جدرانها مزخرفة زخرفة رائعة على هذا الطراز الأندلسي الذي كأنه وشي في نسيج لا نقش في حجر. وفي سقف القاعة المدورة كان معلقاً قنديل مضلع ينبعث منه نور خافت يتسلل من خلال الباب المشبّك ليلقي له في قاع المدخل ظلاً مشبكاً مثله، ويلف القاعة بظل آخر من السكون المشبك بالغموض ومن الهدوء المشبك بالفتنة.

وكان منظر المدخل والباب المضفور والقنديل ذي النور الخافت والقاعة الملفوفة بالغموض منظراً غريباً على فوقفت أتأمل فيه طويلاً، ولم أفطن ،إلا بعد أن جاوزته، إلى أني في حي كل دوره لها مثل هذا المدخل، ولكل مداخله مثل هذه الفتنة. فطفقت أنتقل بين أزقة ضيقة مقفرة لا تنيرها إلا أشعة تائهة تبثها تلك القناديل المعلقة في سقوف قاعات متعددة الأنماط والأشكال: قاعات مربعة وأخرى مدورة، تناثرت في أرجاء بعضها مقاعد من القيشاني وأصص أزهار ملونة، وقامت في أوساط بعضها نوافير صغيرة تثرثر مياهها في عذوبة فاتنة. وكانت كل هذه القاعات مكشوفة لعين من ينظر إليها من خلال أبواب الحديد المضفور في طراز من الزخرفة رائع، وكل ما فيها يسر العين ويستلب اللب بروعته وجماله. ولكن أروع ما فيها كانت تلك القناديل المعلقة التي ترسل أشعتها بهدوء فتلتف على تشبيك الحديد وزركشة الرخام كأنها بكل هذا الجمال هائمة، ما بين مكشوفة الجوانب يتحدر منها الضوء في مجرى مطمئن عريض وبين ملفعة بصفائح النحاس المخرم كأنما يصدر ضوؤها عن نجوم سماء بعيدة، ساكن بعضها في سكون القاعات وبعضها ينوس في مهب نسمة متسللة من نوافذ القاعات بحركة ناعمة. وهي، هذه القناديل أعني، في هذا الهدوء الشامل كأنها حراس مدينة نام عنها أهلها، سحروا فأصبحوا بعض زينة هذه القاعات.

وخيل إلي حقاً أني في مدينة مسحورة. فقد كان كل هذا الجمال مقروناً بصمت لاحس فيه ولا نأمة اذا استثنيت ثرثرة الماء في النوافير. وكان المارة القليلو العدد الذين كانوا يخطرون بين حين وآخر في هذه الأزقة المقفرة يسيرون في سكون طائر كأنهم أطياف تخطر في حلم. ولم أعد أكتفي بالتأمل من بعيد بل صرت أتسلل في المداخل حتى الأبواب المشبكة فأقف عندها أتلمس ضفائر حديدها بيدي وأجهد كي أسمعه نأمة حي وراءها فلا أصل إلى شيء. وانتهيت إلى أن الليل قد أدلج وكان عهدي بالوقت أنه أول المساء، فسألت نفسي وأنا أعتمد بيدي على أحد الأبواب المشبكة لو أن أحداً خرج إليّ فرآني والليل منتصف أقف وقفاتي الطويلة على هذه الأبواب ماذا كان يقول عني؟ وبينما كنت أحدث نفسي بهذا راعني أن الباب الذي كنت أعتمد عليه قد دار على نفسه وأني أصبحت ، دون ارادة مني، في عتبة القاعة التي كنت أتأمل فيها، دخل تلك القاعة.

تولاني لحظتئذ شعور مزيج من الرهبة والخجل. وكان علي أن أتراجع وأعود أدراجي إلى الزقاق المظلم الذي أتيت منه، ولكن الهدوء وضوء قنديل القاعة الخافت كانا ، بلطفهما، يخففان من حدة العواطف في نفسي ويلقيان ظلاً من التسامح على كل شيء في محيطهما. وخيل إلي أني إذا دخلت القاعة وجست خلالها فإني لا آتي أمراً اداً. وشعرت وأنا أتأمل في القاعة التي دخلتها على غير ارادة مني بالاطمئنان يحل في نفسي محل القلق، بل شعرت أني لست في مكان غريب عني، فقد كانت جدران القاعة مألوفة لدي والاعمدة المزدوجة في كل ركن من اركانها تماثل أعمدة أعرفها ، أعرفها جيدا. عددت النوافذ المحيطة بالقاعة فكانت ثماني نوافذ تملؤها مشبكات من الخشب بلون أخضر قاتم. وخيل إلي أني أسمع وراء هذه المشبكات حفيف أغصان في بستان لا أراه ولكني أعرف أنه يمتد، حتماً، وراء هذه القاعة. بل كنت على مثل اليقين من أني لو دفعت الباب الصغير المناوح للباب المشبك الذي منه دخلت لأفضيت إلى ذلك البستان .فقد تذكرت الآن أين رأيت هذه القاعة قبل.. انها بعينها قاعة دار آل بوقلادة المثمنة ذات النوافذ المشبكة والاعمدة المزدوجة في كل ركن من أركانها الثمانية!.. كان احساسي بذلك واقتناعي به شديدين حتى أني استدرت فجأة إلى صدر القاعة أبحث عن المفتاح الذي يجب أن يكون هناك، المفتاح الذي تسقط عليه أنوار نوافذ القاعة سقوط أنوار نوافذ الكاتدرائية على مسيحها المصلوب، مفتاح العودة.. الا أن مكان ذلك المفتاح كان خاليا، وكان يروح ويجيء على ذلك المكان ظل للقنديل المعلق في السقف والذي

كانت تحركه نسمة عابرة فيهتز نائساً وتهتز معه الأضواء المنبعثة من ثقوب غلافه النحاسي ، والظلال التي تخلقها هذه الأضواء للحديد المشبك والنخاس المخرم، وظلال أوراق النباتات المزهرة في أصصها على حواف الشبابيك.
لم يكن مفتاح العودة معلقاً في مكانه من صدر تلك القاعة..و هذا وحده هو الذي ثبتني أني لم أكن في قاعة آل بوقلاده في مكناس بل في قاعة شبيهة بها لا تختلف عنها الا في أنها ليست في مكناس ، بل في اشبيلية ..
وهنا سكت السيد سكوتا طويلا كأنما أرادني على ان استوعب في أثنائه مبلغ الغرابة في القصة التي وقعت له، أو زعم أنها وقعت له، في تجواله تلك الأمسية في أزقة اشبيلية. وكنت من جانبي أصغي إليه في مظهر من اللامبالاة، أما في الواقع فقد كنت أتابعه في شوق، فقد كان أسلوبه في الحديث ينم على أن كل ما قصه إنما هو مقدمة لما هو أغرب. قلت له، داعيا اياه إلى الاستمرار في حديثه:
-أكان مفتاح العودة معك؟
فقال:
-لقد خطر ببالي حينذاك ما خطر ببالك الآن يا ابن العم!.. كنت واثقاً من أني لو أدرت مفتاح العودة ذلك المعلق في قاعة دارنا بمكناس في قفل باب هذه القاعة في اشبيلية لفتحه. ولكن مفتاح العودة لم يكن معي. ووجب قلبي وأنا أتصور أن أجدادي الذين بنوا في مكناس، منذ خمسة قرون، قاعة مثمنة ذات أعمدة مزدوجة في أركانها الثمانية، إنما كانوا يتمثلون هذه القاعة وينحون منحى هندستها! وفي مزيج مثير من العواطف والأفكار التي كانت تتجاذبني في تلك اللحظة اتجهت وأنا شبه مذهول إلى الباب الصغير الكائن في أقصى القاعة والذي كنت واثقا من أنه ينتهي إلى بستان أعرف أشجاره واحدة واحدة ومماشيه ممشى ممشى، اتجهت إليه، وكما كنت أدفع ذينك المصراعين في مكناس كل مساء دفعت هذين المصراعين الليلة واندفعت منهما إلى ظلام ما وراءهما...
حقاً، لقد كان وراء هذه القاعة بستان. كانت أشجاره بالقرب من الباب خميلة كثيفة لا يفيد نور القنديل الشاحب في قشع الظلام الذي لفها شيئاً. ولكن أشعة تائهة من نور البدر كانت تتسلل من بين ذرى الأشجار فتنير أطراف الأوراق حتى لتبدو حوافها كأنها شذرات فضة لامعة. وعلى مقربة من خميلة الأشجار هذه كانت بقعة جرداء إلا من عشب يفرش أرضها، غمرها ضوء البدر فبدت في وسط الظلام المهيمن كأنها واحة من نور. وقفت في الظلام أدير عيني فيما حولي لأرى مبلغ الشبه بين هذا البستان في اشبيلية وذلك في مكناس. إلا أن بصري ما كان يستطيع أن يميز شيئاً فكان يرتد مقسوراً إلى بقعة النور الواضحة وسط الظلام. وبينما كنت في موقفي ذاك طرق سمعي حفيف بعيد سرت له قشعريرة تحت جلدي. وانتبهت في تلك اللحظة إلى نفسي: أين أمسيت وكيف بلغت بي الجرأة واللامبالاة هذا المبلغ؟!.. وكان الحفيف يقترب مني شيئاً فشيئاً، كان واضحاً أنه لشخص يتلمس طريقه في البستان وهو يتجه إلى حيث أنا واقف، فلا بد أنه قادم ليخرج من الباب الذي دخلت أنا منه.. وجمدت في موقفي وقد تعذر علي التراجع فبت أراقب أن يبرز لعيني بين لحظة وأخرى في تلك البقعة المضيئة التي ما كانت بعيدة عني بستاني مفتول الساعدين أو هيكل أكرش لصاحب القصر الذي تفضي إليه القاعة والبستان. ولم يتأخر ما ترقبته، فلم تلبث الأشجار الكثيفة ان انفرجت عن شبح انفصل عن ظلالها مسرعاً ثم وقف في البقعة المنيرة كأنه بلغ غايته، ورفع رأسه إلى أعلى مستقبلا بوجهه ضوء القمر. ولما تأملت في هذا الشبح هدأ وجيب قلبي، بل لعله ازداد، فلم يكن الشبح الذي خفت ظهوره، بل كان شبح امرأة!
نعم كان شبح امرأة. وقفت في ضوء القمر يلف قدها الفارع ثوب أسود فضفاض وقد جمّعت ذراعيها العاريتين حتى مرفقيها ، إلى صدرها، ودثرت كتفيها بشال لفع عنقها ثم انحدر على منكبيها. ورأيت في النور المنسكب على جسمها، درها تحت كفيها الناصعتي البياض يعلو ويهبط في سرعة كأنه صدر طريدة افلتت لتوها من حبالة القانص. وأنت تعلم أن ضوء القمر يذيب الألوان ويمحو السمات، ولولا أن خطوط القد المشيق الذي ما كان على مبعدة مني كانت تنم عن الفتوة لما عرفت لوجه هذه المرأة الذي كنت أراه مستبهم المعالم ، مبلغاً من العمر .ولا أدري كم استمر وقوفها من الزمن. فقد كنت بين ترقب وجل لمرورها بجانبي في طريقها إلى القاعة، وبين حذر أن يبدو من يما يلفتها إلى وجودي المريب في ساعة مثل هذه حيث أنا، وبين رغبة مبهمة مني في أن تطيل لبثها حيث هي تحت دفوق الضياء كتمثال آلهة الجمال في محراب النور، بين هذا وذاك كنت لا أعلم مبلغ الزمن الذي يمر من الطول أو القصر. وتساءلت في قدومها إليه: أهي تجمع أنفاسها منفلتة ممن يطاردها أم هي ساعية إلى موعد تخاف فواته؟ وما الذي وراء هذه الأشجار الباسقة من أخبار واسرار؟ وكأني في تساؤلي الحائر هذا ذهلت عن نفسي فندّت مني حركة كان لها في السكون المطلق الذي كان يلف الخميلة دوي فضاح أثار انتباهها، فالتفتت إلى حيث كنت لفتة ارتياع أو لفتة لهفة. واعتصرت صدري غصة مزيج من اللهفة والخوف وأنا أراها تدلف من بقعة النور إلى الظلام الذي كنت فيه، متجهة إلي. وكنت واثقاً من أنها لا تستطيع أن تتبينني في مستندي إلى جذع شجرة كانت ورائي . الا أنها تقدمت إلى حيث كنت دون تردد وأسندت يدها إلى جذع الشجرة مارة بذراعيها فوق كتفي حتى لقد شعرت بأن مرفقها العاري قد مس شعر رأسي.. غريب كيف يمكن للحظة قصيرة أن تستوعب آلاف المشاعر في آن واحد! كان عطرها يفغمني فأشعر أني انتقلت إلى عالم غامض ليس فيه أشجار ولا قاعات ولا قناديل ملفعة بالنحاس المخرم، عالم مادته عبق وسكانه أطياف وأموره أسرار. وكان جسدها الريان الذي يفرعني طولا يكاد يلتصق بي حتى لتحركني الرغبة في ان احتويه بذراعي، وكان هذا الجسد ينفث حرارة خدر

لها جسمي الذي تولته رعدة لا أدري أكانت من قرة ليل الصيف ام من حراجة الموقف الذي كنت فيه. وكان قلبي يجب بشدة بينما كان رأسي في ضباب من التفكير المبهم. بين كل هذه المشاعر أحسست أن شفتي هذه الشابة الاندلسية كانتا تبحثان عن أذني لتقتربا منها ما وسعها الاقتراب، فلما لامستاها أو كادتا همستا فيها بصوت أبح كلمة واحدة: "مانيانا"..

ثم انفلتت هذه المرأة الغامضة عائدة من حيث أتت، مارة في طريقها ببقعة النور الوضاءة...

إلى هنا كان السيد قد انتهى من افراغ خمس كؤوس على حسابي. وكان ككتاب القصص المتسلسلة في الصحف يعرف أين ينتهي اليوم كي يترك قارئه مشوقاً إلى عدد الغد. فصفقت مرة أخرى للساقي؛ وكلن السيد ،لدهشتي، وضع يده على يدي وقال:

-اذا شربت كأساً أخرى فلن أقوى على أن أتم لك القصة . دعها لي إلى قبل أن نفترق.

فقبلت منه ذاك وسألته: "مانيانا"، أليس معناها "غداً" قال: نعم انها كما تقول تعني "غداً". إنها "باكر"، "بكرة" في العربية، ولكنها أكثر شاعرية من كلمتنا . لقد أودعت تلك الفتاة "مانيانا" في أذني ومضت. بقيت بعدها ذاهلاً في مكاني برهة طويلة افترض الفروض فيما بدر منها. أتراها وقد حسبتني حبيباً لها خافت الرقباء فواعدتني الغد؟ ولملمت آثار الدهشة من نفسي وفي حذر خرجت من الباب الصغير إلى القاعة المثمنة حيث كان القنديل المخرم ينوس وتنوس معه الظلال التي يخلفها لكل ما في القاعة. ثم خرجت من الباب المشبك الزخرف إلى المدخل، ثم إلى الزقاق المقفر الهادئ.

مانيانا!.. كانت الكلمة ترن في أذني بصوت منغوم أبحّ. وكنت أترجم البحة طوراً بالرغبة المحمومة وتارة بفزع الخائف الذي يستجدي المعونة. لم كانت فزعة خائفة هذه الغادة التي تحتل قصر آبائي؟... نعم، لقد خرجت إلى الزقاق الهادئ وقد وقر في نفسي أن هذه الدار هي التي حمل أسلافي مفتاحها يوم اضطرتهم جيوش فرديناند وايزابيلا وسياط محاكم التفتيش وحديدها المحمى إلى الهجرة من الفردوس الأندلسي إلى تخوم الصحارى الافريقية. ليس من تفسير غيره لأن تتشابه قاعتان، أحدهما في الأندلس على ضفة الوادي الكبير وأخرى في مراكش على سفح جبال الأطلس، بهندستها وباعمدتها المزدوجة ونزافذهما الثماني، ذات المشبكات القاتمة الخضرة، وبالبابين الصغيرين المفضيين إلى بساتين وراءهما. أي قدر ساقني إلى هذه المدينة المسحورة، مدينة القناديل المزركشة التي تهمس النور همساً على الزخارف الأندلسية، ليدخلني إلى قاعة ليست غير القاعة التي خلفتها ورائي معلقاً في صدرها مفتاح العودة تذكار الأسلاف للأخلاف؟ ترى ما الذي أراده القدر حين ساقني إلى حيث انحنت عليّ غادة يضوع منها عبير مسكر ويرتجف صوتها رغبة أو رهبة وهي تهمس في أذني الكلمة الغامضة... كلمة المستقبل بمجهوله المخوف وبآماله الحافزة "مانيانا؟... ما الذي أراده القدر بكل هذا؟

لم أستطع أن أنام ليلتي تلك. إن الرغبة التي أخرجتني من بلدي وبلغت بي الأندلس كانت رغبة مقنعة بألف قناع سقطت أمس كلها حين وجدت نفسي في القاعة المثمنة. لم يكن صحيحاً أني كنت شاباً وارثاً أراد أن يسري عن نفسه في اللهو ومتع السياحة. فإن أبناء أعمامي وأصدقائي يقصدون باريس وجنيف وكان ومنطقة البحيرات في ايطاليا بينما قصدت وحدي الأندلس في حر القيظ انتقل في قطار الكورييوس بين المدن التائهة في منعطفات الوديان وعلى سفوح الجبال باحثاً عن الأحياء العتيقة والدور الخربة. أي لهو في هذا وأية متعة؟ في القاعة المثمنة اكتشفت أني، في الحق، انما كنت أبحث عن الباب الذي ينفتح قفله بمفتاح العودة. لقد وجدت ذلك الباب. وجدته في لفائف من الظلام والابهام ومسرحاً لحكاية غامضة مفتاح السر فيها كلمة بسيطة مانيانا ..!وتقلبت في فراشي أسائل نفسي أكان حقاً أني دخلت الليلة في اشبيلية قاعة تشبه قاعة آل بوقلادة في مكناس؟.. أكان حقاً أن قدّ فتاة ممشوقاً مال عليّ وأن شفتيها همستا في أذني لفظتهما الساحرة؟.. أفي اشبيلية كلها حي مثل هذا الحي الذي تنوس فيه تلك القناديل العجيبة، أم كان كل الذي رأيته وهماً ترشح إلى ذهني مما قرأته في ألف ليلة وليلة من حكايات اذا طلع عليها الصباح تلاشت أطيافها في ضوء النهار الساطع؟.. ماذا أقول لك يا ابن العم؟ لقد طلع النهار الساطع، أقبل الغد، المانيانا.. أفتحسب أن كل ما رأيته كان وهماً؟ قطعاً لم يكن كذلك. كان حقاً، حقاً تراه مسطورا على جبيني هذا في أخاديده وفي هذه الشعرات البيض التي تملأ رأسي. مانيانا، مانيانا.. ياليتك كنت وهماً من الأوهام!

وغرورقت عينا السيد وهو يلفظ جملته الأخيرة بصوت أجش، فقلت لنفسي أن كؤوس الخمر الاندلسية الممسكة قد فعلت الآن فعلها في رأسه. كانت قصته شائقة، وكان تأثره يدعو إلى الظن بأنه لم يبلغ بعد منتهاها. فسألته وأنا أريد في الواقع استثارته :

-اذاً فقد كانت هذه حقاً هي دار أجدادك؟

قال:

-لقد كانت هي هي. قام لي ألف دليل ذلك في الغد والأيام الذي تلته. لا أستطيع أن أصف لك تلك المشاعر التي

تملكتني حينذاك: اعتزاز وفخر، ثقة بالنفس ورضى عنها. كنت أسير في شوارع اشبيلية فيخيل إلى أن أمواج الوادي الكبير تحدثني عن أجدادي وأن أجراس الخيرالدا حين تدوي انما تؤذن داعية إلى طاعة الله تحت لواء أسلافي. كل ما قرأته في بطون الكتب من أحاديث مجد وفخار كان يحيا أمامي في أضواء قناديل اشبيلية الخافتة وفي زخارف قاعة السفراء في الألكازار، وفي أشجار النخيل الباسقة في جنائن الحي القديم. لو علمت ما كان يعمر رأسي في تلك الأيام من أفكار وماذا كنت أبيّت من أمور؟ أسأل عن أصحابي من شباب المغرب الذين ملأتهم رسائلي حماسة وأذكت في قلوبهم جذوة المجد التالد. لقد دب الحياة في المفاتيح الصدئة المعلقة في مداخل مئة دار ودار قديمة في أنحاء افريقية فأصبحت من جديد رمز حركة بعث مشبوبة انطلقت شرارتها من تحت القنديل النائس في القاعة المثمنة ذات الأعمدة المزدوجة في هذه المدينة. كان ذلك منذ ثلاثين عاما يا ابن العم. لو عشت منذ ثلاثين عاماً لعرفت كم من الأبصار كانت حائرة ما بين القيروان وسبتة في تقلبها بين الأنوار، هجرت نجوم السماء واتجهت في ثبات وعزم وأمل ذاكٍ ترقب النور الخافت، ولكنه النور المقدس، المبشر بدنيا أسطورية الأمجاد نور قناديل اشبيلية.

فقاطعت السيد وأنا أرى أن الحماس قد استبد به:

-وماذا عن موعد تلك الفتاة في البستان؟

فخفت صوته فجأة وتطامن في مجلسه بعد أن كان قد تطاول، ثم قال في همس خفيض:

-نعم كان موعداً في الغد، مانيانا.. لقد لقيتها في ذلك الموعد يا ابن العم...

وزفر طويلا ثم سكت كأنه يريد أن يبدأ فصلا قليل الرغبة في سرده من حكايته. وقبل أن يعاود الكلام ارتفع صوت ينادي في لهجة آمرة:

-آلسيدو!

فالتفت والتفت معه. وكانت التي تناديه هي الفتاة التي تحدثت إليّ في أول السهرة والتي كانت دعابتها هي التي جاءت بالسيد إليّ.

قلت له: إنها هياسنتا تناديك.

قال: نعم، إنها هياسنتا . سأعود إليك.

وقام حاني الظهر إلى حيث كانت. ورأيتها تلقي على ذراعها ثوباً من ثياب الرقص ووشاحاً ملوناً. ثم سارت وسار خلفها خافض الرأس، جامد النظرة ، ذليل الخطى.

وانتظرت أن يعود السيد إلى مائدتي ولكنه تأخر، تأخر كثيرا، فلم أجد بداً من النهوض.

وسألت رئيس الخدم الذي قدم إليّ بحسابه:

-هل السيد من أهل اشبيلية؟

فتطلع إليّ وبدا لي أنه لم يفهم قولي. فعدت أقول:

-السيد، أعني هذا الشاب الذي ذهب في رفقة السنيوريتا هياسنتا.

فابتسم رئيس الخدم في أدب وهو يقول:

-تعني آلسيدو، إنه خادم كونشيتا.

فقلت مصححاً: - اني أسأل عن آلسيدو..

فقاطعني رئيس الخدم بقوله:

-إنه يعينه أيها السيد: البروفيسور آلسيدو. إن الراقصة التي رافقها تدعى كونشيتا، ولكنه يسميها هياسنتا. كل جميلة في اشبيلية اسمها عنده هياسنتا.

قلت : أتعني أن آلسيدو خادم لهذه الراقصة؟

قال: كل الناس يستكثرون ذلك على مظهره الارستقراطي وتفلسفه في أحاديثه ولكن هذا هو الواقع يا سيدي. إني أعرفه منذ ثمانية أعوام على الأقل، ولا أذكر أنه غاب ليلة واحدة عن الكاسينو منذ عملت فيه. لسانه ذلق، ومظهره كما ترى لا يخلو من الأناقة. ولكن له دعوى عريضة في قصور اشبيلية التاريخية .غير أن الناس هنا يسمونه مجنون هياسنتا، وينقلون عنه أنه في شبابه، منذ أكثر من ثلاثين عاماً، فَقَدَ كل ما يملك، وكان حينذاك ثريا كبيرا، بعد أن جن غراما بالدونا هياسنتا الفارز إي كاخال..

وابتعد رئيس الخدم وهو يشكرني على ما نفحته به من عطاء.

***

كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل حين نزلت من الترام رقم "٢" في" البلاسا نوبيا" قريباً من فندقي. وكنت أظنني بعد السفرة الشاقة في النهار وبعد هذه السهرة الطويلة في الليل مشوقاً إلى النوم، ولكن قصة البروفيسور آلسيدو، أو السيد بوقلادة ملأت خاطري وطردت النوم عن عيني وأنا الذي ما سمعتها جاداً في أول الأمر. وكانت ساحة البلاسا نوبيا مليئة بالناس الذين ما تعودوا في الأندلس أن يناموا في هذه الساعة من الليل، فعدلت عن الذهاب إلى الفندق وانسقت في شارع قليل المارة وفي نيتي أن أتجول في جو الليل الراطب وضياء القمر الساطع. كنت أشعر بحاجة إلى أن أستعيد بيني وبين نفسي حكاية هذا الطفيلي الواسع الخيال، أو هذا العاشق المجنون، أو هذا العزيز الذي ذل، أو هذا النبيل المغربي الذي تحطم على عتبة مثله الأعلى. كنت أتمنى لو أنه عاد لأسأله

كيف لقي القاعة المثمنة مرة أخرى وهو الذي دخلها صدفة، ومن كانت تلك الغادة الاشبيلية التي واعدته إلى الغد، وكيف اخنت صروف الدهر على شممه فمرغته في حمأة الكاسينو.. لا أدري ماذا كان سيقول لي لو أنه عاد فتابع حكايته لعله كان سيسرد علي قصة تستمر حتى مطلع الفجر .ولكن تعقيب رئيس الخدم كان يحوي في ثناياه احتمالات أكثر من قصة: خطوط مأساة عنيفة أو عناصر مهزلة ساخرة.
أخذ علي التفكير بقصة السيد انتباهي وأنا أسير على غير هدى في جوادّ ضيقة قليلة النور. وحين فطنت إلى نفسي تبادر إلى ذهني ما رواه ذلك الشاب عن حي القاعات ذات الأبواب المشبكة والقناديل المعلقة. فقد وجدتني في زقاق صورة للأزقة التي وجد فيها نفسه أول ليلة هبط فيها اشبيلية. كانت هناك أبواب واطئة مفتوحة، كل باب منها مدخل إلى رواق مفروش ببلاط ملون، وفي منتهى كل رواق باب مشبك تلوح وراءه قاعة مزخرفة الجدران مشبكة النوافذ كأنها بخرير الماء في نوافيرها الدقيقة الصنع وبنباتاتها الملونة المتسلقة على نوافذها وبازهارها الفواحة العبير في الليل النديّ، كأنها بكل هذا جنائن صغيرة في مدينة سحرية. كانت كل تلك القاعات تسبح في غلائل من النور الخافت الذي كانت ترسله قناديل عبقرية الصنع بديعة الزخرفة كأنها، كما قال السيد في وصفها، حراس جنة نام عنها أهلها. لم يكن اذن كل ما رواه ذلك المغربي البائس وهماً باطلاً!.. وخيل إلي أني أحيا معه لحظاته التي عاشها في تلك الليلة المشهودة من حياته، بل خيل إلي أني لو دفعت الباب المشبك الذي كنت واقفا حياله لأفضيت إلى القاعة المثمنة التي تشبه قاعة دار آل بوقلادة في مكناس، واني لو دفعت الباب الصغير الذي في صدرها لأفضى بي إلى ذلك البستان حيث لقي فتاته، دونا هياسنتا الفارز كما سماها رئيس الخدم، ولسمعتها تهمس في أذنه: مانيانا .. مانيانا...
ولا بد أني مكثت طويلا أستعيد قصة السيد ولعلي كنت مغمض العينين وأنا أفكر بأن شخصية السيد أقرب إلى نفسي مما قدرت أول ما عرفته. أليس هو عربيا مثلي؟ وهذا الحماس الذي قدم به من المغرب إلى الأندلس، ألم يعمر صدور كثير من أمثالي في حقبة من أعمارنا حينما كنا نحلم بملك الأجداد وبالمواطن التي وطئتها سنابك خيولهم؟ إن الفرق بينه وبين لداته، وربما كنت أنا منهم في يوم من الأيام، أنه حاول أن يخرج من الحلم إلى الواقع ولكن جناحاه ذابا كجناحي "إيكار" في ضياء الشمس. لقد شعرت بالأسى في نفسي عليه ورثيت له .وساء أكان طفيلياً يتصيد كؤوس الخمر من غرباء روّاد الكاسينو، أم نبيلا أرغمه الدهر على ان يصبح حاملاً لشفوف راقصات اشبيلية ومباذلهن، فقد أصبح جد قريب إلى قلبي. وفتحت عيني لأتأمل بعيني أنا لا بعين آلسيدو، القاعة التي كانت تبدو من خلال الباب المشبك الذي كنت حياله. كانت قاعة مربعة بسيطة البناء، ينفتح على جانبيها بابان تكتنف الظلمة ما وراءهما. وفي صدر القاعة كان باب عريض مفتوح على مصراعيه تبدو من خلاله أربع شجيرات قصيرة ينيرها ضوء البدر المنصب عليها من وراء القاعة فتبدو مزيّنة بأزهار حمر أرجوانية متوسدة أوراقها الخضر الصغيرة. كانت أربعا من شجيرات الرمان تحمل أزهار الجلنار. ما أشبهها بأربع أشجار مثلها في صحن دارنا!.. دارنا التي بيني وبينها بحار وقفار.. وجمدت في مكاني وقد سرت قشعريرة باردة تحت جلدي : فليست شجيرات الرمان وحدها هي التي تشبه شجيرات الرمان في دارنا، بل ان القاعة كانت تبدو لي من وراء الباب المشبك كأنها قاعة دارنا بنفسها. ولم أصدق عيني فأغمضتهما وفتحتهما مرات عديدة لأتثبت مما أنا فيه، ولكن شيئاً مما رأيته بهما أول مرة لم يتغير. أهي مدينة مسحورة هذه المدينة؟.. وتمثل لذهني مصير السيد بوقلادة وانا أتطلع بنظر جامد إلى شجيرات الرمان الأربع، فخيل إلي أني أرى بين أزهار الجلنار شبح امرأة فارعة القد تومئ إليّ أن أفتح الباب المشبك، وأن أضواء القنديل المعلق في سقف القاعة أخذت تلفني بشبكة من أشعتها جاذبة إياي إليها، وأن القنديل نفسه الذي كان يهتز نائساً كرقاص ساعة كان يهمس في أذني في كل نوسة: مانيانا، مانيانا!.. ولكني قاومت الرغبة الجارفة التي كانت تدعوني إلى أن أدفع الباب وأدخل القاعة، مقاومة عنيفة. وفي جهد اليائس انتزعت قدمي من موقفهما وانفتلت مسرعا في رواق المدخل إلى باب الزقاق المقفر. وهناك ملأت صدري من الهواء الطلق وزفرت زفرة فرجت عني، ثم انطلقت مسرعاً، كأني أعدو، إلى المدينة وأنا أحس أن قناديل اشبيلية لا تزال تلقي علي شباك أنوارها وتطاردني بأشعتها لتجذبني ، كما جذبت قبلي البروفيسور آلسيدو، أو السيد بوقلادة، إلى هاوية عالمها المسحور.

تمت..